

أسرار الحج
في حوار بين الإمام زين العابدين عليه السلام والشبلي
محمد علي مقمداي

المقدمة:

لأهل بيت النبوة والعصمة - الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً - روايات كثيرة ومواقف مملوءة بالمعارف الجليلة تخص فريضة الحج ومناسكه، التي هي ركن من أركان الدين الإسلامي الحنيف، كما هو في الخبر الصحيح عن علي بن إبراهيم، عن أبيه وعبد الله بن الصلت جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز بن عبد الله، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية...»^(١).

وذكر مثل هذا الخبر في صحاح أهل السنة وكتبهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وبألفاظ مختلفة، منها ما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»^(٢).

وبهذا وبغيره فإن ركنية الحج ثابتة عند جميع المذاهب الإسلامية وبالتالي فقد حظي هذا الركن بأهمية بالغة وعظيمة - سواء في أحكامه ومناسكه أم في معارفه ومعنوياته وآثاره - على النفوس المؤمنة، ولذا فإن من أراد الحج والعمرة لا بد له من أن لا يكتفي بمعرفة أحكامه ومناسكه ومواقفه وكيفية أدائه فحسب، بل ينبغي له التعرف على ما يترتب على تلك المناسك من التزامات روحية وأخلاقية لنفسه وللآخرين وعندئذ سيكون الحج مظهراً يجسد الإيمان عبادةً وعملاً وقولاً، وصورة رائعة من صور الجمال الروحي ترافق الحاج منذ اللحظات الأولى لهذه الفريضة المباركة وعند عودته إلى وطنه وأهله.

كم هي عبادة جميلة تلك التي تترك آثارها على الإنسان؛ على إيمانه بالله تعالى، وعلى سلوكه وتعامله مع الناس!
حقاً، إن فريضة الحج ولادة جديدة للإنسان، إذا استطاع أن يعيش آثارها ومعانيها، وإذا فتح قلبه لاستقبال أنوارها^(٣).
إن الإمام زين العابدين عليه السلام بين للشبلي* مفاهيم الحج العالية؛ والآن نحن جميعاً - لا الشبلي وحده - بين يدي الإمام عليه السلام:

(* مع أنني بذلت جهدي فيما تيسر لي من مصادر، لم أشر فيها على ترجمة مناسبة للشبلي هذا، وعلى ذلك فأعتقد أنه من المجاهيل، لم يذكر في كتب رجال الحديث وتراجمهم عند الفريقين. وكل ما وجدته في خلال تتبعي هو شخص آخر يدعى أبو بكر الشبلي البغدادي واسمه دُلف بن جحدر وقيل: جعفر بن يونس وقيل: جعفر بن دُلف الذي توفي ببغداد سنة ٣٣٤ عن ثمانين سنة. أنظر:

١- الغدير ١١: ١٤٩.

٢- سير أعلام النبلاء ١٥: ٣٦٧.

٣- العبر ٢: ٥٠.

٤- مستدرک سفينة البحار ٥: ٣١٦.

ولهذا نكتفي بذكر هذه الرواية هنا لعلّ مضمينها ولما فيها من دروس نافعة وعبر وهي تبين لنا جانباً كبيراً من أسرار هذه الفريضة المقدسة والرحلة المباركة.

لَمَّا رَجَعَ مَوْلَانَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ وَلبست ثوب الطاعة؟». قال: لا.

فقال ﷺ من الحج استقبله الشبلي. فقال له: «حججت يا شبلي؟». قال: نعم، يا بن رسول الله.

قال ﷺ: «أَنْزَلْتَ المِيقَاتِ وتجرّدت عن مخيط الثياب واغتسلت؟». قال: نعم.

قال ﷺ: «فحين نزلت الميقات نويت أنك خلعت ثوب المعصية، ولا تجرّدت عن مخيط الثياب، ولا الرياء والنفاق والدخول في الشبهات؟». قال: لا.

قال ﷺ: «فحين تجرّدت عن مخيط ثيابك، نويت أنك تجرّدت من الرياء والنفاق والدخول في الشبهات؟». قال: لا.

قال ﷺ: «فحين اغتسلت نويت أنك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟». قال: لا.

قال ﷺ: «فما نزلت الميقات، ولا نويت أنك خلعت ثوب المعصية، ولا تجرّدت عن مخيط الثياب، ولا

أغتسلت!»، قال ﷺ: «فحين دخلت

ثم قال ﷺ: «تنظّفت، وأحرمت وعقدت بالحج؟». قال: لا.

قال ﷺ: «فحين صلّيت

الركعتين، نويت أنك تقرّبت إلى الله بخير الأعمال من الصلاة، وأكبر حسنات العباد؟». قال: لا.

قال ﷺ: «فحين لبّيت، نويت

أنك نطقت لله - سبحانه - بكلّ طاعة، وصمت عن كلّ معصية؟». قال: لا.

قال له ﷺ: «ما دخلت الميقات،

ولا صلّيت، ولا لبّيت!»، ثم قال له ﷺ: «أدخلت الحرم ورأيت الكعبة وصلّيت؟». قال: نعم.

قال ﷺ: «فحين عقدت الحجّ

نويت أنك قد حللت كلّ عقد لغير الله؟». قال: لا.

قال له ﷺ: «ما تنظّفت ولا

أحرمت، ولا عقدت الحج!»، قال له ﷺ: «أدخلت الميقات وصلّيت ركعتي الإحرام ولبّيت؟». قال: نعم.

قال ﷺ: «فحين دخلت الحرم،

نويت أنك حرّمت على نفسك كلّ غيبة تستغيها المسلمين من أهل ملّة الإسلام؟». قال: لا.



- قال ﷺ: «فحين وصلت مكة، نويت بقلبك أنك قصدت الله؟». قال: لا.
- قال ﷺ: «فما دخلت الحرم، ولا رأيت الكعبة، ولا صليت!». ثم قال: «طفت بالبيت، ومسست الأركان، وسعيت؟». قال: نعم.
- قال ﷺ: «فحين سعيت نويت أنك هربت إلى الله، وعرف منك ذلك علام الغيوب؟». قال: لا.
- قال ﷺ: «فما طفت بالبيت، ولا مسست الأركان، ولا سعيت!». ثم قال له ﷺ: «صافحت الحجر، ووقفت بمقام إبراهيم ﷺ، وصليت به ركعتين؟». قال: نعم.
- فصاح ﷺ صيحة كاد يفارق الدنيا ثم قال: «آه آه». ثم قال ﷺ: «من صافح الحجر الأسود، فقد صافح الله تعالى، فانظر يا مسكين! لا تضيع أجر ما عظم حرمة، وتنقض المصافحة بالمخالفة، وقبض الحرم نظير أهل الآثام». ثم قال ﷺ: «نويت حين وقفت عند مقام إبراهيم ﷺ، أنك وقفت على كل طاعة، وتخلّفت عن كل معصية؟». قال: لا.
- قال ﷺ: «فحين صلّيت فيه ركعتين، نويت أنك صلّيت بصلاة إبراهيم ﷺ، وأرغمت بصلاتك أنف الشيطان؟». قال: لا.
- قال له ﷺ: «فما صافحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صلّيت فيه ركعتين!». ثم قال ﷺ له: «أشرفت على بئر زمزم، وشربت من مائها؟». قال: نعم.
- قال ﷺ: «نويت (٥) أنك أشرفت على الطاعة، وغضضت طرفك عن المعصية؟». قال: لا.

- قال ﷺ: «فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها!».
 قال له ﷺ: «أسعيت بين الصفا والمروة، ومشيت وترددت بينها؟».
 قال: نعم.
 قال له ﷺ: «نويت أنك بين الرجاء والخوف؟».
 قال: لا.
 قال ﷺ: «فما سعيت، ولا مشيت، ولا ترددت بين الصفا والمروة!».
 ثم قال ﷺ: «أخرجت إلى منى؟».
 قال: نعم.
 قال ﷺ: «نويت أنك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟».
 قال: لا.
 قال ﷺ: «فما خرجت إلى منى!».
 (ثم) قال له ﷺ: «أوقفت الوقفة بعرفة، وطلعت جبل الرحمة، وعرفت وادي نمرة، ودعوت الله - سبحانه - عند الميل والجمرات؟».
 قال: نعم.
 قال ﷺ: «هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله - سبحانه - أمر المعارف والعلوم، وعرفت قبض الله على صحيفتك وإطّاعه على سريرتك وقلبك؟».
 قال: لا.
 قال ﷺ: «نويت بطلوعك جبل الرحمة، أن الله يرحم كل مؤمن ومؤمنة، ويتولى كل مسلم ومسلمة؟».
 قال: لا.
 قال ﷺ: «فنويت عند نمرة أنك لا تأمر حتى تأتمر، ولا تنجز حتى تنجز؟».
 قال: لا.
 قال ﷺ: «فعندما وقفت عند العَلَم والنمرات، نويت أنها شاهدة لك على الطاعات، حافظة لك مع الحفظه بأمر ربّ السموات؟».
 قال: لا.



- قال عليه السلام: «فما وقفت بعرفة، ولا طلعت جبل الرحمة، ولا عرفت نمرة، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات!». ثم قال عليه السلام: «مررت بين العلمين، وصليت قبل مرورك ركعتين، ومشيت بمزدلفة، ولقطت فيها الحصى، ومررت بالمشعر الحرام؟».
- قال: نعم.
- قال عليه السلام: «فحين صليت ركعتين، نويت أتمها صلاة شكر في ليلة عشر، تنفي كل عسر، وتيسر كل يسر؟».
- قال: لا.
- قال عليه السلام: «فعندما مشيت بين العلمين ولم تعدل عنها يميناً وشمالاً، نويت أن لا تعدل عن دين الحق يميناً وشمالاً لا بقلبك، ولا بلسانك، ولا بجوارحك؟».
- قال: لا.
- قال عليه السلام: «فعندما مشيت بمزدلفة، ولقطت منها الحصى، نويت أنك رفعت عنك كل معصية وجهل، وثبت كل علم وعمل؟».
- قال: لا.
- قال عليه السلام: «فعندما مررت بالمشعر الحرام، نويت أنك أشعرت قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عز وجل؟».
- قال: لا.
- قال عليه السلام: «فما مررت بالعلمين، ولا صليت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفة، ولا رفعت منها الحصى، ولا مررت بالمشعر الحرام؟».
- ثم قال له عليه السلام: «وصلت منى ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصليت في مسجد الخيف، ورجعت إلى مكة، وطفت طواف الإفاضة؟».
- قال: نعم.
- قال عليه السلام: «فنويت عندما وصلت منى، ورميت الجمار، أنك بلغت إلى مطلبك، وقد قضى ربك لك كل حاجتك؟».
- قال: لا.

قال ﷺ: «فَعِنْدَمَا رَمَيْتَ الْجِمَارَ، نَوَيْتَ أَنَّكَ رَمَيْتَ عَدُوَّكَ إِبْلِيسَ وَغَضِبْتَهُ بِتَمَامِ حَجِّكَ النَّفِيسِ؟».

قال: لا.

قال ﷺ: «فَعِنْدَمَا حَلَقْتَ رَأْسَكَ، نَوَيْتَ أَنَّكَ تَطَهَّرْتَ مِنَ الْأَدْنَسِ وَمَنْ تَبِعَهُ بَنِي آدَمَ، وَخَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا وَلَدْتَكَ أُمُّكَ؟».

قال: لا.

قال ﷺ: «فَعِنْدَمَا صَلَّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ، نَوَيْتَ أَنَّكَ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ - عَزَّوَجَلَّ - وَذَنْبِكَ، وَلَا تَرْجُو إِلَّا رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى؟».

قال: لا.

قال ﷺ: «فَعِنْدَمَا ذَبَحْتَ هَدِيكَ، نَوَيْتَ أَنَّكَ ذَبَحْتَ حَنْجَرَةَ الطَّمَعِ بِمَا تَمَسَّكَتَ بِهِ مِنْ حَقِيقَةِ الْوَرَعِ، وَأَنَّكَ اتَّبَعْتَ سُنَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِذَبْحِ وَلَدِهِ وَثَمَرَةِ فُوَادِهِ وَرِيحَانِ قَلْبِهِ، وَحَاجَهُ (٦) سُنَّتَهُ لِمَنْ بَعْدَهُ، وَقَرَّبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ خَلَقَهُ؟».

قال: لا.

قال ﷺ: «فَعِنْدَمَا رَجَعْتَ إِلَى

مَكَّةَ وَطَفْتَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، نَوَيْتَ أَنَّكَ أَفْضَتَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَرَجَعْتَ إِلَى طَاعَتِهِ، وَتَمَسَّكَتَ بِوَدِّهِ، وَأَدَّيْتَ فَرَائِضَهُ، وَتَقَرَّبْتَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟».

قال: لا.

قال له زين العابدين ﷺ: «فَمَا وَصَلْتَ مِنْى، وَلَا رَمَيْتَ الْجِمَارَ، وَلَا حَلَقْتَ رَأْسَكَ، وَلَا أَدَّيْتَ (٧) نَسْكَكَ، وَلَا صَلَّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ، وَلَا طَفْتَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، وَلَا تَقَرَّبْتَ، إِرْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَحْجَّ!».

فَطَفِقَ الشُّبْلِيُّ يَبْكِي عَلَى مَا فَرَّطَهُ فِي حَجِّهِ، وَمَا زَالَ يَتَعَلَّمُ حَتَّى حَجَّ مِنْ قَابِلٍ بِمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ، انْتَهَى (٨).



الهوامش :

- (١) راجع: الأصول من الكافي ٢: ١٨، دار الكتب الإسلامية، طهران؛ وسائل الشيعة ١: ١٣ أبواب مقدمة العبادات، الباب ١، الحديث ٢، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث.
- (٢) راجع: صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ١: ١٧٧، دار الفكر؛ كنز العمال ١: ٢٨، الحديث ٢٨، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٣) هكذا في رواية نقلها العلامة المجلسي رحمته الله: «لا يزال على الحاج نور الحج ما لم يذنب». بحار الأنوار ١٠: ٩٦، مؤسسة الوفاء، بيروت.
- (٤) في نسخة: بنور.
- (٥) في نسخة: أنويت.
- (٦) كذا في المخطوط، والظاهر أن صوابه «وأحييت».
- (٧) في نسخة: ذبحت.
- (٨) مستدرک الوسائل ١٠: ١٦٦-١٧٢ نقلاً عن كتاب شرح النخبة.